صدر حديثًا عن مركز دراسات الحضارة الإسلامية بمكتبة الإسكندرية كتاب «الحيل البابلية للخزانة الكاملية»، تأليف الحسن بن محمد الإسكندري، وتحقيق الدكتور لطف الله قاري.

ومخطوط الكتاب فريد من نوعه، ويُنشر لأول مرة محققًا في مركز دراسات الحضارة الإسلامية بمكتبة الإسكندرية.

كان مؤلف الكتاب (الحسن بن محمد الإسكندري)، المتوفى سنة ٦٤٠ هجرية/ ١٢٤٣م – بارعًا في مجاله، ومتصلًا بأكابر الحكام في زمانه، كالخليفة العباسي الناصر، والملك الكامل الأيوبي.

ويدور موضوع الكتاب – كما يذكر محققه – حول ألعاب الخفّة، التي كانت تسمى قديمًا بأسماء مختلفة، مثل الدكّ والنيرنجات والشعبذة والمشاتين، وحديثًا تُسمّى بأسماء أخرى، مثل الألعاب السحرية وخدع السيرك وحيل الحواة. ولم تلقَ الكتب التراثية التي أُلِّفَت في هذا الموضوع الاهتمام الكافي، برغم احتوائها على ثروة من المعلومات، التي تعتمد على معرفة مؤلفيها بقوانين العلوم المختلفة من ميكانيكا وفيزياء وكيمياء ونبات وحيوان وبالصناعات المختلفة، فنشرُها يهم مؤرخي التكنولوجيا والصناعات، وكذلك يهم الباحثين في التراث الشعبي والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الثقافية وما يتصل بها، كالإثنوجرافيا (علم الإنسان الاجتماعي أو وصف أحوال الناس) والإثنولوجيا (علم الأعراق أو علم الثقافات المقارن) والميثولوجيا (تاريخ الأساطير) وغيرها من العلوم. ويهم كذلك المهتمين بالمصطلحات العلمية، وكل ما يتصل بهذه المجالات.

وعلى الرغم من أن كتاب «الحِيَل البابلية» يحتوي على بعض المعلومات الخرافية، فإنه يتضمن الكثير من المعلومات القيّمة نجدها عند استعراض محتوياته، نذكر منها:

١- استخدام خواص النباتات، مثل صمغ الكثيراء وصمغ الأشراس وخاصية نبات البلاذر لتثبيت الكتابة.

٢- الإشارة إلى فنون صناعة الكتاب، وتناول المؤلف بابًا كاملًا عن التعمية أو التشفير، والكتابة السِّرّيّة، وتشفير نص الرسائل، ثم إظهاره باستخدام خصائص المواد الطبيعية والكيميائية، ويشتمل الباب كذلك على كيفية مسح الكتابة أو حذفها من الورق، وصبغ الورق بألوان مختلفة.

٣- يوجد في الكتاب باب كامل حول الزراعة وتلقيح النباتات بعضها ببعض، ويلقي الضوء على عدد كبير من أسماء النباتات والحيوانات التي كانت معروفة للمؤلف، ومتداولة في الثقافة الشعبية. وهذه يجدها القارئ في الكشافات بآخر الكتاب، مع بيان أسمائها العلمية في الحواشي. فكشّاف أسماء النباتات يوضح أنها بلغت مائة وأربعين نباتًا.

٤- يشتمل الكتاب على النصوص الوحيدة التراثية التي نعرفها حول استعمال المؤثرات الضوئية، وذلك باستعمال صندوق ينبعث منه في الظلام ضوء شبيه بالهلال والكواكب وغيرها، ليوهم المتفرجين بحصول معجزات.

٥- تناول الكتاب استخدام سلاح بحري، وهو النفط الذي يظل مشتعلًا فوق سطح الماء دون أن يطفئه الماء، وكذلك شرح كيفية استخدام مقذوف ناري للمنجنيق، له خاصية التدمير التام، ذلك أنه يترك المباني ركامًا بعد تدميرها، ومما تناوله الكتاب أيضًا شرح المواد المقاومة للنار.

٦- استخدام إطفاء الجير لينتج عنه دخان من تحت الأرض يخيف به الناس، واستعمال حرارة التفاعل لإشعال لهب.

٧- تركيب مواد تشتعل ذاتيًّا، وشرح استخدام العملية الكيميائية المعروفة بالاستقطار.